الفصل الثالث

المسلمون والمجاعة
سنوات من الخوف والجوع

ليس للدين حسابات تذكر عندما تجوع الشعوب. فاليس بالدين وحده تخنع الشعوب.. وأن العلاقة الاقتصادية بين الحاكم والشعب أهم واسبق بكثير عن العلاقة الدينية. فعندما تفرغ البطون لا تملاءها كتب السماء ..

تمهيد:

ارتبط تاريخ الحياة على أرض مصر منذ بدء الخليقة بأحد أهم مواردها وهو النيل، كما ارتبطت حياتهم بوفائِه وجفافِه وعُلوه وانخفاضِه، وارتبطت سعادتهم وحزنهم بالنيل واهب الحياة لأرض مصر وسبب الرخاء ورغد العيش والمجاعات و الذي قد يكون أحياناً سبباً في الجدب والقحط والجوع لأهل مصر ويُذكّرنا المقام بقوله تعالي على لسان يوسف عليه السلام فى سورة يوسف : { ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } (يوسف ٤٨،٤٩) .

فقد كان هذا خبرٌ من يوسف - عليه السلام - عما لم يكُن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي أتاه الله . وهو خبرٌ بمعنى الأمر، أي " ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة " . فقد مرت مصر بأزمة اقتصادية شديدة الوطأة كانت تستلزم خطة رشيدة لمواجهتها، هذه الخطة كانت السبب فى إنقاذ مصر من المجاعة وعبور هذه الأزمة، بل إن البلاد المجاورة كانت تشترى الحبوب والطعام من مصر أثناء تلك الأزمة، وهو ما جعل المسلمين منذ الفتح يهتمون بأمر النيل لدرجة أن بعض الباحثين العرب كان قد أجرى دراسة لفيضان النيل وضعوا نسباً استدلوا منها على ما يكفي لأنماط الزراعة المختلفة فوجدوا أن :

١- ستة عشر ذراعاً تكفي لزراعة بعض المحاصيل

٢- سبعة عشر ذراعاٍ تكفي لزراعة معظم الأرض

٣- ثمانية عشر ذراعاً حد الوفاء الذي يكفي لزراعة كل الأرض.. (* الذراع من وحدات الطول المختلفة التي تعتمد على الساعد من المرفق إلى طرف إصبع الوسطى وعادة ما يساوي ١٨ بوصة تقريباً أي ما يساوي ٤٦ سم تقريباً) .

و بوجه عام، فإن الشخصية الفرعونية .. القبطية .. الإسلامية، كانت ولا تزال شخصيةً مؤثرةً تأثيراً ايجابياً ليس فقط في الحضارة الإسلامية، بل وفى الحضارات الإنسانية كلها . وقد أعز الله مصر بالإسلام وأعز الإسلام بمصر فجادت في سبيله وسبيل أمتها بكلِ غالٍ ونفيس. بل إن كل جُرحٍ في الأمة العربية إنما هو في جسد مصر ونزف من دمها.

لقد اتصلت مصر بالحضارة الإسلامية وأخذت منها ما أخذت وردت ما ردت، صحيح أن المصريين على مدى العصور المختلفة قد قاموا بثوراتٍ عديدةٍ، وصيحيحٌ أيضاٍ أن بعضاً من هذه الثورات كان بسبب المجاعاتِ و الأزمات الاقتصادية الطاحنة، إلا أن أي مُنصفٍ لا يمكنه أن يحيد عن حقيقة أنها كانت في مُجملِها، ثوراتٌ نبعت من ذواتهم الأبيّة المُدافعة عن الكرامة والحق في حياةٍ كريمة ومستقبلٍ زاهرٍ .

ولاة المجاعات: مقدمات واحدة لنهايات متشابهة

لعل أولى الأزمات التي مرت بها مصر بسبب الأزمات الاقتصادية والمعيشية الطاحنة، كان في عصر الدولة الأموية. فقد خرج المصريون فى العهد الأموي فى ثورة عارمة، اجتاحت أرجاء الفسطاط، فى عهد بني أمية، للمطالبة بعزل الوالي، ونجحت ثورة الجياع فى خلع الحاكم. ولم يجد وقتها الأمير "عبد الله بن عبد الملك" مفراً سوى الهروب من قبضة الشعب، والنجاة بنفسه، بعدما نهب خيرات البلاد، نتيجة الرشوة والمحسوبية، وفرض الضرائب على الشعب، لتصل فى النهاية إلى ثورة للجياع أكلت الأخضر واليابس.

ويذكر" أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين المقريزى الشافعي" شيخ المؤرخين المصريين، فى كتابه "إغاثة الأمة وكشف الغمة ":، أن أول مجاعة يخرج الناس فيها، مطالبين بعزل الوالي، كانت هى تلك التى حدثت فى مصر، حينما كانت تحت إمارة الدولة الإسلامية، فى عهد الدولة الأموية، عندما تولى عبد الله بن عبد الملك، إمارة مصر.

ويقول: " عندما دخل عبد الله مصر، تشاءم الناس منه، وكرهوا إمارته، وامتدت هذه المجاعة إلى غلاء الأسعار، وكثرة تغيير الولاة، حتى أن عددهم قد بلغ في عشر سنواتٍ، نحو خمسة ولاة، وظل هذا الأمر حتى بداية عهد الدولة العباسية.

وبالعودة للتاريخ، نجد أن ثورة الجياع فى عهد عبد الله عبد الملك بن مروان قد قامت عندما جاء إلي مصر فى سنة ٨٦هـ، ورفض أهالي الفسطاط استقباله، وكانت مصر فى ذلك الوقت، قد غار نيلها، فلم يبقّ منه شيء، تزامن قصور الفيضان مع قدوم عبد الله، لذا وصفوه بأنه " نذير شؤمٍ "، فبدأ إصلاحه بفرض الضرائب، فارتفعت أسعار الغلال، بجانب وانتعش الفساد.

ونقل داود الأنطاكي، المُلقب بالرئيس الضرير- وكان كسيحاً مريضاً، ثم شُفِيَّ من مرضه -أن المجاعة حدثت فى عهد عبد الله بن عبد الملك بن مروان، عندما تولى أمر مصر على مَكرَهةٍ من أهلها، وجاء النيل فى هذا العام على غير موعدٍ بفيضان، ثم تلاه قحطٌ ونذُرة فى المياه، حتى أن الناس والبهائم كانت تخوض في النيل من قلة المياه وضحالتها.

كذلك انقطعت الأعمال المرتبطة بالمياه، وتوقفت المراكب، مما أسفر عن غلاء الأسعار في المدن الكبرى، كالفسطاط، التي كانت تعتمد في ميزانيتها الداخلية على ما يأتيها من ضرائب وأموال تجارة من الأقاليم، فضلاً عن نشاط التجارة الداخلية. وتعطلت فى الوقت نفسه تجارة الغلال، وتعثر دخولها إلى الأقاليم فى مصر، كما أدى كان غياب فيضان النيل فى ذلك الوقت، سبباً في نفوق الماشية، وقلة رقعة الأرض المُنزرِعة، فكان طبيعياً أن تنتشر الأوبئة، وتكثر الأمراض.

يقول ابن المقفع المصري، فى كتابه " تاريخ البطاركة ": " إن هذه الأزمة والشدّة، أدت إلى ارتفاع الأسعار، بشكل لم تشهده مصر منذ زمن الفراعنة، وأجبرت أهل الصعيد على الهجرة إلى الريف، لطلب الغلال، وكان يموت كل يوم عدد كبير من الناس، وأيضاً ظهر أول طاعون فى عهد مصر بالدولة الإسلامية، ثم زاد النيل جفافاً، وفرض عبد الله بن عبد الملك بن مروان، والى مصر، مزيداً من الضرائب، فزادت الأسعار، وعم الغلاء كل أرجاءِ مصر، حتى أن قيمة الدينار والدرهم كانت تُقاس بالآلاف ".

ويتابع "ابن المقفع" المصري سارداً الأحداث فيقول: " فى ذلك الوقت، أسرف عبد الله بن عبد الملك فى الأموال المتبقية ببيت المال، على إنشاء المكتبات والدواوين، وتجديد مسجد عمرو بن العاص، ثم نفدت الأموال، وزادت المجاعة، حتى عمت الفوضى أرجاء مصر، وظهر النهب والسرقة، وقام جنود عبد الله، باعتقال وضرب الناس فى الطرقات.

وعانت مصر فوضى عارمة، وظل هذا الوضع حتى نهاية عام ٨٩ هـ، عندما ثار الشعب رافضاً غلاء الأسعار وزيادة الضرائب، و مطالباً بخلع الوالي عبد الله بن عبد الملك، وهجم المواطنون على قصره فى حلوان، فقرر أن يفر تاركاً مصر، وسافر إلى أخيه الوليد بن عبد الملك

بن مروان، خارج مصر، وأخذ معه ما جمعه من أموالٍ، وحُليّ وذهبٍ، إلا أن بعض قُطاع الطرق هاجموه بينما كان في طريقه للأردن، و استولوا على كل ما كان معه،، و قِيل كذلك إنه حاول رشوة واليها ليسمح له بالعبور إلى دمشق، مقر الخلافة الأموية. وبعدها تعرض للمحاكمة، وقضى بقية حياته فى السجن ".

وفي سنة ١٠٥هـ، تولى محمد بن عبد الملك، أمور الحُكم في مصر، فوقع وباءٌ شديدٌ، هرب منه الوالي الجديد إلى الصعيد، ثم عاد بعد بضعة أيام إلى الفسطاط، ليخرج من مصر نهائياً، وفي سنة ١٠٨ هـ، تولى حفص بن الوليد بن عبد الملك بن مروان حكم مصر، وكالعادة حدثت موجة فقر أخرى، فما كان من حفصٍ إلا أن طلب من الناسِ أن يخرجوا طلباً للاستسقاء، وكانت هذه هي أول " صلاة استسقاءٍ " يُقيمها المصريون، فأغاثهم الله وأتم فضلِه عليهم ..

بعض المؤرخين المُحدثين ومنهم الدكتور عبد المقصود أبو باشا- أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر- يصف ما حدث في ذلك العصر بقوله : " إن المجاعة التى ظهرت فى هذا العصر، الذى سُمى بعصرِ الولاة، وصفها المؤرخون بأشد المجاعات التي تعرض لها المصريون، خاصةً أنها أطاحت بالحاكم ".

و يُضيف الدكتور أبو باشا: " إن ثورة الجياع اندلعت نتيجة ما يسمى بـ " ثورات الخوارج "، التى كانت تظهر في الأمصار الواقعة تحت حكم بني أمية، حيث كانت تندلع وتبدأ من الأمصار القريبة من مركز حُكم الأمويين بدمشق، وكان آخرها ثورة عبد الله بن قيس، و التي تسببت فى إلحاق خسائر كبيرة لبنى أمية، إلا أن الوليد بن عبد الملك، عقد اتفاقية مع الخوارج، وجعل لهم نصيباً في الحُكم ".

وهنا يشير الدكتور أبو باشا، إلى أنه على الرغمِ من أن الأوضاع قد هدأت، إلا أنها أورثت تردياً اقتصادياً كبيراً، تسبب فى حدوث مجاعة بالأندلس و مصر، وهما أكبر دولتين واقعتين تحت حكم بني أمية وقتها، لعب النيل دوراً كبيراً فى زيادة آثار المجاعة، وتسبب فى تفاقُهما بشكلٍ كبير، بعدما تأخر الفيضان في ذلك الوقت .

وتواكبت نُدرة الفيضان مع مجيء الوالي الجديد، عبد الله بن عبد الملك، لدرجة أن الناس انشغلوا فى المجاعة ولم يذهبوا لاستقباله كما كان العُرف سائداً في ذلك الحين . ويستطرد أبو باشا قائلاً: " إن المصريين أرسلوا إلى الخليفة الوليد يريدون أخاه هشام، فرفض وأرسل لهم أخاه عبد الله، فعَمّ الفقرُ أرجاء مصر، لذا لقبوه بـ " المكيس " (أي جامع المُكوس، وهي الضرائب)، واعتبروه نذيرَ شؤمٍ على مصر، بعدما عَمَّ الفساد وزادت الضرائب، وأُعْلِن إفلاسُ بيتِ المال، نتيجة إنفاق الأموال على الدواوين والمكتبات وتجديد مسجد عمرو بن العاص، فحدث ما كان المصريون يخشونه من الأمير الجديد، وعَمّت الفوضى أرجاءَ البلاد، وفى نهاية عهده، هاجموا قصره، فقرر عبد الله بن عبد الملك بن مروان الخروج والتوجه إلى قصر أخيه الوالي، وتم القبض عليه فى الأردن، و قِيل وقتها إنه حاول رشوة واليها ليسمح له بالعبور إلى دمشق، مقر الخلافة الأموية.

و الحقيقة أن العامل الاقتصادي، كان هو ما دعا المصريين إلى ثوراتٍ متعددة، كان منها رفضهم أن يُولي آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد والياً اسمه "حسان بن عتاهية" على مصر سنة ١٢٧ هـ بدلاً من الخليفة حفص بن الوليد (١٠٨ هـ)، حيث توجهوا إلى المسجد ودعوا إلى خلع الخليفة مروان بن محمد وحاصروا حسان بن عتاهية في داره ثم أخرجوه من مصر، واتصلوا ببعض الثائرين في فلسطين لتوحيد كلمتهم، فما كان من الخليفة إلا أن نزل على رغبةِ المصريين و رَشَّح والياً آخر اسمه "حنظلة بن صفوان"، لكن المصريين رفضوه أيضاً وحاربوه فهُزم، فسكت الخليفة عن ذلك، ولكن، على مضض . وكان حسان بن عتاهية قد أسقط زيادات الرواتب للجُند التي كان قد أمر بها سلفه. فانتهت ولايته بعد ستة عشر يوماً فقط .

وفى ولاية " يزيد بن حاتم" عام ١٤٧ هـ اجتاحت مصر موجة غلاء غير مسبوقة ؛ أرجعها المؤرخون إلى نقص شديد فى مياه النيل وتزايد ملحوظ فى سكان العاصمة" الفسطاط". وفى عام ١٦٧هـ ضاعف " موسى بن مصعب" خراج مصر، وتشدد فى جمعه؛ ضاربا بظروف الناس المعيشية ومجاعتهم عرض الحائط ولم يهدأ المصريون إلى أن ثاروا عليه وقتلوه فى شوال عام ١٦٨هـ. ولم تنهى حوادث العزل واغتيال قيادات المجاعات عند هذا الحد فى التاريخ المصرى. ففي عام ١٧٣هـ تشدد أيضاً" عمرو بن غيلان" فى جمع خراج مصر، وتعسف فى تأخير رواتب الجند، فثاروا عليه جميعا فى العام ذاته وعزلوه. وكذلك يذكر المؤرخون أن " اسحق بن سليمان" الذى حكم مصر قرابة عشرة أعوام كاملة (١٧٧هـ - ١٨٨هـ) قد أجحف على الناس فى زيادة الخراج وأنه لم يتعلم الدرس جيدا مما سبقه من حكام فشلوا فى التعامل مع ثورة المصريين، فخرج عليه الفلاحون لقتاله. وانتهت وقائع تلك الأحداث الدامية بين الشعب والدولة بمجاعة شديدة : أسفرت عن ثورة عدها المؤرخون عظيمة فى عهد" الليث بن فضل" الذى تولى مصر عام ١٩٠هـ .. وكان حول ولايته اختلافا كثيرا، فرغم كارثة الجوع التى وقعت فى عهده .. فقد أعتبره البعض ضحية، وامتدحه أبو نواس قائلاً:

أنتَ الخصيبُ وهذه مصرُ .. فتدفق فكلاكما بحرُ

هَبَّات الجياع: العصر الطولوني والإخشيدي نموذجاً

تمتع العصر الطولوني باستقرار نسبى فى أحوال النيل زيادة ونقصانا، فلم ينخفض النيل يوما عن حد الوفاء سوى فى الأعوام "٢٧٤ هـ، ٢٨٢ هـ، ٢٩٠ هـ" . ولعل ذلك هو ما دفع بعض المؤرخين إلى وصف العصر الطولوني بأنه كان من أزهى العصور التى لم تشهد أزمات اقتصادية ليس فى التاريخ الإسلامي فحسب . بل وفى التاريخ المصرى برمته. إذ عاشت مصر إبان ذلك العصر استقراراً سياسيا غير مسبوق؛ نتج عنه استقلال اقتصادي ملحوظ؛وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى جملة الإصلاحات التى قام بها "أحمد بن طولون" فى مصر، والتى كان من أهمها إصلاح نظام الجباية، فضلاً عن وإسهاماته فى كف المظالم والنهوض بالزراعة والتجارة والصناعة؛ للدرجة التى امتلكت فيها مصر آنذاك رصيدا لا يقارن من الذهب.

وفى هذا السياق أشار المؤرخون أن الدولة الطولونية عامة لم تحظى بنفس القدر من النهضة التى شهدتها مصر إبان حكم أحمد بن طولون، الذى لم يذكر أن شهدت مصر أي مجاعات ولم تواجه أي قلاقل اقتصادية سوى فى مرضه الأخير، حيث استشعر المصريون خطر الفوضى والتفكك؛ نظراً لصغر سن ولى العهد وكونه غير مؤهل لإدارة شئون البلاد بنفس حنكة والده..

وفى عام ٢٧٣ هـ شهدت مصر زلزالاً عظيماً؛ ارتجفت له مصر رجفة الموت المحتوم.. ويصف " ابن البطريك" تلك الكارثة قائلاً: " مات الناس من الجهد والجوع حتى كادوا يأكلون بذر الكتان .. وامتلأت الأسواق بالموتى، فكان المصريون يحملون كل ثمانية من الموتى على جمل وتحفر لهم حفرة عظيمة ويلقون فيها. ومن هنا فإن المصريون قد عرفوا المقابر الجماعية منذ نهاية ذلك العصر الطولوني كم عرفوا مهنة الحانوتية فى مجاعة الملك "بيبى الثانى" إبان الحكم الفرعوني .. كما ذكر " البطريك" أن النيل الذى كان فى بداية العصر الطولوني وفياً مخلصاً لمصر كأحد أبنائها؛ فلم ينخفض منسوبة لمرة واحدة في هذه الفترة، فقدت شهدت مصر انخفاضا سريعا ومفاجئا فى منسوب النيل؛ خرج الناس على أثره للاستسقاء .. ولم تنته تلك الأزمات بسقوط الدولة الطولونية عام ٢٩٠ هـ بل امتدت قرابة سنتين بعد سقوط الدولة.

ويذكر المؤرخون أن مصر قد شهدت انخفاضا سريعا فى عهد " هلال بن بدر" الذى تولى حكم مصر فى الفترة من (٣٠٩ هـ - ٣١١ هـ)، حيث تعرضت البلاد لأزمة اقتصادية كبيرة، كما

يذكرون أنها تعرضت عام ٣١٧ هـ إلى حملات من الجراد تسبب فى أكل أخضرها ويابسها، ومنع الشمس من الوصول إلى الأرض أنذالك .

ومع بداية العصر الإخشيدي عام ٣٢٣ هـ شهدت مصر انحسارا ملحوظاً لأزماتها الاقتصادية، فلم يذكر المؤرخون أزمة واحدة وقعت فى مصر، طيلة الحكم الإخشيدي الذى استمر قرابة ٢١ عاما. إلا أن " يحي بن سعيد الأنطاكى" قد ذكر لنا أنه فى عام ٣٢٩هـ حدث بمصر غلاء شديد؛ عانى الناس بسببه من شدة ووباء. وارجع المؤرخون سبب الغلاء إلى جشع التجار والسماسرة وتلاعبهم بالأسعار، حيث لم تشهد مصر إبان العصر الإخشيدي نقصاً فى مياه النيل، الذى كان معيارا أساسيا للغلاء ومصدرا مهما للمجاعة. وفى عهد " أبى القاسم الإخشيدي" الذى تولى حكم مصر عام ٣٢٨ هـ تهورت أحوال العباد، وثارت الرعية ومنعته من صلاة العشاء المعروفة آنذاك "بصلاة العتمة" في الجامع العتيق، وإذا كان الغلاء قد أرتبط فى عمومية أسبابه بعدم وفاء النيل، فإن لم يكن فبجشع التجار واحتكار السلع أوفى حالة الكوارث و والبلاء والنكبات أو عندما يحل على الظالمين عقاب رب العالمين كالجراد والفئران .

وفي عام ٣٤١ هـ أتلفت الفئران المحاصيل وأستمر الغلاء وثار الناس ثورة عظيمة على الغلاء. وفى عام ٣٤٧ هـ عادت ثانية حملات من الجراد الكثيف؛ لتحدث أزمة عدها المؤرخون صغيرة؛ حيث أتى الجراد على كل أخضر وحجب عن البلاد ضوء الشمس. وفي ولاية "على بن الإخشيد" عام ٣٤٩هـ

شهدت مصر غلاء لأسباب مختلفة مغايرة ن فلم تكن بسبب عد وفاء النيل ولا بسبب جشع التجار وإنما بسبب هجرة المغاربة إلى مصر، وتزايد أعداد السكان بالعواصم، وعدم حدوث زيادة مقابلة لها فى الموارد. ولعل هذه الظروف والحوادث والأسباب تتشابه مع ما يحدث الآن من نزوح أهل العراق والشام (سوريا) بما يقدر بأكثر من ستة ملايين نازح لظروف الحرب والدمار؛ مما يمثل تحديا يواجه الاقتصاد المصرى؛ ويشكل ضغطا كبيراً على الموارد. فقد كانت مصر – ولا تزال- هى الأم الحنون لكل العرب وعلى مر العصور.

ولم تكن هذه العوامل والأحداث سببا كافيا لوقوع ثورة للجياع، وإنما كانت بمثابة مقدمات لأزمة اقتصادية طاحنة وقعت فى البلاد عام ٣٥٢هـ، وعدها المؤرخون أطول وأخطر أزمة خلال الحكم الإخشيدي على إطلاقه؛ نظراً لانخفاض منسوب مياه النيل عن حد الوفاء، والذي استمر لتسع سنوات متتالية. ويؤكد "المقريزي" في كتابه "إغاثة الأمة يكشف الغمة" على وقوع تلك الأزمة قائلاً: "وقع الغلاء في الدولة الإخشيدية أيضا واستمر تسع سنين متتابعة.." وظل ماء النيل يتناقص حتى بلغ أعلى مدى لتناقصه وهو ذراع عصر "كافور الإخشيدي"، الذى كثرت فيه الفتن، ونُهبَت الضياع، وماج الناس بمصر. وبموته اضطربت أمور البلاد، ومات أناس كثيرون بسبب فتن الأمراء وحروبهم وغلت الأسعار حتى بيع القمح كل "ويبة" بدينار.

الشدائد الفاطمية:

بعد الحكم الإخشيدي لم تتحسن الأحوال فى مصر سريعاً، فقد ظلت الأوضاع المعيشية للمصريين تنحدر من سيئ إلى أسوء؛ فلا زالت البلاد بعد سقوط الإخشيد تعانى من القحط والبلاء حتى جاء "جوهر الصقلي " إلى مصر عام ٣٥٨ هـ لتستمر المجاعة ثلاث أعوام من حكمه وتبدأ عصرا جديدا من النهضة عام ٣٦١ هـ، شهدت مصر إبانه انخفاضا ملموسا فى الأسعار .. وعم الرخاء أرجاء البلاد.. بيد أن النعيم لم يدم طويلاً.. فقد عادت المجاعات تهدد المصريين مع تولى" الحاكم بأمر الله" عرش مصر عام ٣٨٦ هـ، وهو فى الحادية عشر من عمره.. وفى بيئة سياسية مضطربة؛ حيث تربص القوى الطامعة فى الحكم بالبلاد من كل جانب.. ناهيك عن المنازعات التى

نشأت بين البربر والأتراك (حرب الجار كوة) و الأيونية والمجاعات والاحتكار. واختفي القمح وخطفت النساء من الطرقات.

وفي عام ٣٩٥هـ انتشر وباء الماشية الذي ربما يسمى الآن "بالحمى القلاعية" وأنخفض منسوب النيل عام ٣٩٧هـ وشهدت البلاد مجاعة خطيرة أسبابها مضطربة. وشدد(الحاكم) الرقابة على الأسواق،وصلى الناس صلاة الاستسقاء،وتضرعوا إلى الله حتى وضعت المجاعة أوزارها،وفي عام ٤٠٣هـ لم يف النيل ولم تزرع الأراضي غير أن (الحاكم) وزع الأموال على الفقراء. وفى عام ٤٠٦هـ حدث العكس، حيث شهدت مصر مجاعة لم يسببها جفاف النيل كالعادة بل فيضانه؛ إذ امتلأت الشوارع بالمياه، وقطعت الطرق، وأفسدت نباتات البساتين.. وأغرقت الضياع وكانت تلك هى آخر المجاعات التى حدثت أثناء حكم (الحاكم بأمر الله) سنة٤١٠ هـ.

ولم يمكث " الحاكم بالله " طويلاً مكبل الأيدي مشاهدا لتلك المجاعات التى تحصد أرواح العباد، لكنه حاول إيجاد حلول للمجاعات والقضاء عليها، فأرسل في أول الأمر "بطريك النصارى" ليسافر إلى الحبشة وقد أجله ملك الحبشة وأكرمه وفتح سدً فى النهر؛ حتى وفي النيل. كما أنه أرسل " للحسن بن الهيثم " الذي أعلن قدرته على معالجة فيضان النيل ونقصانه. ولكنه فشل وأعتذر لطبيعة؛ نظراً أسوان. مما دفع "الحاكم بأمر الله" إلى تفعيل قوة الدولة المركزية المهملة الآن في مصر لمراقبة الأسعار. ووقعت أولى المجاعات قبل عام من تولى " الحاكم بأمر الله " حكم البلاد سنة ٣٨٧هـ .

وفى عهد (الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم) الذى تولى الحكم سنة ٤١١هـ خلفاً لأبيه" الحاكم بأمر الله" واستمر سنة٤٢٧هـ وشهدت البلاد عامي " ٤١٤هـ و ٤١٥ هـ " مجاعة مخيفة؛ أرجعها المؤرخون إلى ضعف الخليفة وتراخيه عن الإصلاح، ونقص منسوب النيل. وسطر(المقريزي) لمجاعة ٤١٧هـ وأنفرد بها وأرجعها إلى زيادة الفيضان. وفي عام ٤٢٤هـ تكررت مجاعة جديدة، نظراً لتأخر وفاء النيل أربعة أشهر كاملة؛ كادت أن تعصف بالبلاد؛ لولا مراقبة الأسواق إلى أن جاءت زيادة النيل .

الشدة المستنصرية:

لم تكن الأحوال المعيشية بمصر فى عصر "المستنصر بالله الفاطمي" أفضل حالا ً مما كانت عليه أيام " الحاكم بالله " فقد ظل النحس يطارد الفاطميين فى كل عصر. وكما قال الشاعر:

تحكموا فاستطالوا فى حكومتهم .. وبعد حين كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أُنصِفُوا لكن بغوا ... فأتى عليهم الدهر بالآفات والمحن
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم .. هذا بذاك ولا عتب على الزمن

فبعد مجاعة الفئران التى وقعت فى مصر عام ٤٢٦ هـ فى نهاية ولاية " الحاكم بأمر الله الفاطمي". وفي مستهل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري من تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، وتحديدا في عصر الخليفة "المستنصر بالله الفاطمي" الذي كان من أطول الخلفاء حكما لمصر ١٠٣٦-١٠٩٤م / ٤٢٧-٤٨٧ هجرية أي " ستين" عاما متواصلة. شهدت الفترة الأولي من حكمه ازدهار الدولة في جميع المجالات، والذي كان يعتبر من العصور الذهبية في مصر ولكن سبحان الذي يبدل الأحوال ولا يتبدل انقلبت الأحوال في العام الثلاثين من حكم المستنصر؛ لتدخل مصر مرحلة رهيبة جدا لم يتخيلها أي إنسان. وقد أسهب المؤرخون في ذكرها.. حيث حدثت "الشدة المستنصرية" أو ما يعرف "بالشدة العظمى" وهو مصطلح يطلق على المجاعة والخراب الذي حل بمصر نتيجة غياب مياه النيل بمصر لسبع سنين متواصلة عرفت "بالعجاف"

ووقعت "الشدة المستنصرية" في عام ٤٥٧ هجرية وكان المستنصر يحتفل بالعام الثلاثين لبلوغه عرش الدولة العلية ذات القوة البهية مابين الأمم.. وكانت الدولة الفاطمية آنذاك تضم مصر والشام والحجاز وجزء من اليمن إلي جانب النوبة " شمال السودان" وبرقة " شرق ليبيا ". ولكن في هذا العام حدث شيء لم يكن في الحسبان. حيث انخفض منسوب مياه النيل بشدة وقسوة لم تعرفها مصر من قبل حتى وصل ٢ ذراع. وكأن مياه النيل قد استعصت على الجريان وأقسمت ألا تأتي لمدة ٧ سنوات. وهو نفس عدد السنوات العجاف التى حدثت فى زمن رمسيس الثاني الذي طالت مدة حكمه للبلاد، و ضربت مصر بالنزائل،وعرفت سنوات الشدة في مصر بالسنين العجاف تم ذكرها فى "عشر آيات بالتوراة .. وتسع آيات بالقرآن الكريم" والتي أنقذها النبي يوسف الصديق من براثن المجاعة والمهانة.. وخرجت مصر بفضل من الله ثم سياسة النبي يوسف الحكيمة اقتصاديا من الأزمة..

وحول ماجرى فى مصر من جراء تلك الكارثة؛ روى المؤرخون حوادث عديدة يشيب لها الولدان؛ إذ تصحرت الأرض وهلك الحرث والنسل وخطف الخبز من على رؤوس الخبازين، وأكل الناس القطط والكلاب حتى أن بغلة وزير الخليفة الذي ذهب للتحقيق في حادثة أكلوها، وعندما علم الوزير بسرقة بغلته غضب غضبا شديدا، وتمكن من القبض علي اللصوص وقام بشنقهم علي شجرة، وعندما استيقظ في الصباح وجد عظام اللصوص فقط، وعلم أن الناس من شده جوعهم قد قاموا بأكل لحوم اللصوص. ويحكى أن الخليفة المستنصر نفسه قد جاع، لدرجة أنه افترش الحصير فى قصره، وباع ما على مقابر أبائه من رخام ليقتات به، وقبل الصدقة من ابنة أحد علماء زمانه..

ونظراً لتعذر وجود الأقوات وغلاء الأسعار، حيث بلغ سعر رغيف الخبز إلي ١٥ دينار دفعة واحدة؛ مما اضطر الناس إلي الهجرة من مصر، وكانت وجهتهم إلي الشام والعراق والحجاز من وطأة هذه الأزمة.. ويذكر أن أم الخليفة هاجرت هي وبنات الخليفة إلي الشام تاركة ابنها الخليفة إلي مصيره .. واضطر بعض أعيان الدولة أن يخدموا الناس لقاء كسرة من الخبز.. وبيعت حارة بأكملها، مكونة من عشرين دارا بطبق من الطعام؛ حتي سميت " بحارة الطبق ".. كما اضطر بعض الناس إلى أكل لحوم القطط والكلاب الميتة والبحث عن شرائها، وكان يباع الكلب بـ "٥ دنانير"والقطة بـ " ٣ دنانير " .. وبارت بالطبع الأراضي الزراعية الخصبة وتوقفت الصناعة ومن ثم التجارة؛ وانتشرت البطالة ومن ثم تفشت الجرائم بمختلف أنماطها من سرقات وعمليات السطو المسلح وتشكيل العصابات؛ وأدى ذلك إلي انفلات الأمن الذى شمل جميع قطاعات الدولة بما فيها الجيش.. وذكر " ابن إلياس " أن الناس أكلت الميتة وأخذوا في أكل الأحياء وصنعت الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح .. وتراجع سكان مصر لأقل معدل في تاريخها..

ويروى " المقريزى " أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار و هم يبكون من الجوع؛ فلجأت إلى شكمجية حليها و أخذت تقلب ما فيها من مجوهرات واختارت عقدا ثمينا من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة و الفسطاط فلا تجد من يشتريه. وأخيرا استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، و استأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكن لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجياع، فاغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفرا من أن تزاحمهم حتى اختطفت لنفسها حفنة من الدقيق؛ وحزنت لم حدث من الجماهير الجائعة، وتساءلت فى نفسها ربما أصنع اليوم رغيفا ولكن كيف لي أن أتى برغيف مثله وقد بعد أثمن ما أملك، فغن أطعمتهم اليوم؛ كيف لي أن أطعمهم غداً. وعلى الفور عكفت المرأة على عجن حفنة الدقيق و صنعت منها قرصا صغيرة و خبزتها، ثم أخفتها فى طيات ثوبها.. و انطلقت إلى الشارع صائحة : الجوع الجوع... الخبز الخبز... والتف حولها الرجال و النساء و الأطفال و سارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر، ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصا من طيات ثوبها، و لوحت به و هى تصيح : أيها الناس.. فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف

دينار... فادعوا معي لمولاي السلطان... يا أهل القاهرة يا أهل القاهرة.. أدعو لمولانا " المستنصر" الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره؛ حتى تقومت هذه القرصة بألف دينار... يا أهل القاهرة....)،وظلت حتى سمع (المستنصر) فأحضر الوالي وأقسم بالله جلت قدرته إن لم يظهر الخبز في الأسواق وينحل السعر؛ ضرب رقبته وانتهب ماله.

ويذكر المؤرخون أن "الحسن بن الهيثم" فى زيارته لمصر إبان الدولة الفاطمية، قد أشار عليهم ببناء " سد عالي " على النيل. بيد أن مشروعه قد قوبل بالرفض من الخلافة؛ فكانت النتيجة ما حدث من شدة. وظلت الفكرة حتى كتب لها التنفيذ في ستينات القرن العشرين ببناء السد العالي الذي وقى الله به مصر خطر السنين العجاف التي غالبا ما كانت تستمر بالسبع سنين. ويذكر أن محمد علي بعد خروج الحملة الفرنسية كانت مصر أمامه ليحكمها منذ ١٨٠٣م إلا أنه وبذكاء رفض الولاية ومنسوب الفيضان منخفض، ولم يقبل إلا بعد انتهاء الأزمة التي حسبت على خورشيد باشا الوالي العثماني.

ولما كان " القائد الضعيف فتنة" وأن أمور الحكم لا تستقيم تحت ولاية حكام ضعفاء.. فقد ذكر المؤرخون أن المستنصر كان واليا ضعيفا؛ ينساق سريعا لشكايات العامة، ويعطى أذنه لكل من هَّب ودَب لدرجة أن من بين وزراءه من لم يستمر فى الولاية سوى يوماً واحد.. وأنه خلال تسع سنوات فقط تعاقب على ولاية المستنصر أكثر من أربعين وزيراً. فعد المرخون ذلك مؤشراً على كثرة المشاحنات واختلاف السياسات ومذاهب الوزراء.

ولم تختلف الأوضاع هنا كثيرا عن ما شهدته مصر إبان ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م مما عُرف تاريخيا بـ" الفوضى الخلاقة" والتى أسفرت عن اضطرابات سياسية عديدة كان لها بالغ الأثر على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد. ومن حكومة إلى حكومة وصل عدد الوزراء والمحافظين خلال عامين من الثورة قرابة ١٧٠ وير ومحافظ، لم تزد فترة بقائهم فى السلطة عن أربعة أشهر فى المتوسط وهو ما حمل خزانة الدولة أعباءً مالية إضافية ذهبت فى صورة معاشات لوزراء سابقين.. لدرجة أن هناك وزارة واحدة مثل التربية والتعليم تعاقب على ولاياتها خمسة وزراء خلال عامين .. بينما لم يزد عدد الوزراء الذين تقلدوا نفس الوزارة خلال ثلاثين سنة هى حكم مبارك عن ٥ وزراء.

ووصف المؤرخون تلك الفترة من حكم المستنصر ب " الفوضى غير الخلاقة". تلك الفوضى التى تسببت بشكل كبيره فى إعادة فرض على العسكر على المشهد السياسى المرتبك آنذاك. حيث ساهمت تلك أوضاع المتردية فى تزايد نفوذهم، باعتبار العسكر أو الجيش هو القوة الوحيدة المنظمة فى تلك الفترة والتى يحكمها بشكل كبير مبدأ " السمع والطاعة". وكذلك فقد كانت أيضاً الجهة الوحيدة التى بوسعها تقرير مصير ليس الحكم الفاطمي فحسب ولكن تقرير مصير البلاد برمتها. وكذلك بإمكانها وحدها إحداث التغيير المنشود. ليس فقط بما تملكه من قوة ونفوذ ولكن لرغبة العسكر ذوى الطوائف المختلفة فى الحصول على مزيد من الثروة والنفوذ.. والفارق الوحيد بين ما شهدته مصر فى ٢٥ يناير وتلك الفترة هو الدور الخفي الذى لعبته المؤسسات القضائية فى المشهد السياسى وخرجت من اللعبة وهى الرابح الوحيد من الفوضى الخلاقة التى شهدتها البلاد .

أما عن التداعيات السياسية فكان لها اكبر الأثر في تفاقم الأزمة حيث انقسم الجيش الفاطمي إلى جنود مغاربة وأتراك وسودانيين و أرمن وشوام . حيث انشق عن الجيش آنذاك " ناصر الدولة ابن حمدان" الذي هرب إلي الدلتا والإسكندرية، وأعلن سقوط الخلافة واسقط الدعاء للخليفة علي منابر هذه المناطق، وحارب الجند السودانيين حتي أخرجهم إلي الصعيد.. وقام ابن حمدان الذى كان زعيما للجند الأتراك بمحاصرة القاهرة؛ تمهيدا لإنهاء الدولة الفاطمية، والدعاء لنفسه خليفة .. وبالفعل دخلها وقبض علي أم الخليفة السودانية، ونهب أموالها ثم تركها بعد دفع فدية. ولم يتوقف عند

هذا الحد بل انتقل لنهب الخليفة نفسه، ويذكر المؤرخون أن بن حمدان لم يجد في قصر الخليفة سوى الحصير الذى ينام عليه، إذ أنه باع كل شيء فى قصره من ثياب وسلاح وذخائر وتحف وأساس ليأكل،وكان يفرش الحصير ..!!

و عندما تمكن أحد قادة الأتراك ويسمى " الدكز" بقتل ابن حمدان، فاستقر الوضع مع الفاطميين وقام الخليفة بالاتصال سرا ببدر الجمالي، الذى كان وقتها واليا لعكا تحت قيادة الخليفة المستنصر، كما كان يعرف بإخلاصه الشديد للمستنصر، الأمر الذى دفع المصر إلى استدعاءه وطلب مساعدته فى القضاء علي الفتنة التي دبت في الجيش.. وعلى الفور استجاب " بدر الجمالي" لدعوة الخليفة وتمكن من قتل " الدكز" وتولي وزارة مصر. وتمكن بدر بالفعل من إخضاع جميع الأتراك في الجيش، وقتل عدد كبير منهم، ثم استولي علي الدلتا والإسكندرية، التى عرفت حينذاك بكرهها الشديد للحكم الفاطمي " ذو المذهب الشيعي. لدرجة أنهم تحالفوا مع ابن حمدان وساعدوه ضد الخلفية حتى تمكن ابن حمدان من إخضاع الصعيد له.

ورغم تعاسة الفاطميين فى إدارتهم للبلاد، إلا انه يبدو أن " بدر الجمالي " كان الأوفر حظا منهم؛ إذ تزامن ظهوره بالمشهد السياسى وتوليه لمنصب رئاسة الوزراء جريان النيل وانفراج الأزمة، حيث تمكن " الجمالي" من تحصين القاهرة و إعداد أسوارها، والتى لا يزال الباقي منها حتى الآن شاهداً على هذه الأحداث، في الأبواب الشهيرة لها،، كما تمكن بدر الجمالي من تحسين أحوال المصريين،وقام بإلغاء الضرائب علي أصحاب الأراضي والمصانع والتجارة لمدة سنتين لتخفيف الأزمة . ومن ثم تعود الدولة ولو شكلا إلى الحياة . واستمر الوضع هكذا إلى أن سقطت الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي في ٥٦٧ هجرية.. أي بعد سنوات طويلة من الشدة المستنصرية.